مظاهر الحياة والموت في معلقة عبيد بن الأبرص: دراسة تحليلية

THE PHENOMENA OF LIFE AND DEATH IN OBAID BIN AL-ABRAS' HANGING POEM

An Analytical Study

Dr. Lubna Farah

Assistant Professor, National University of Modern Languages-NUML, Islamabad

Muhammad Tayyab

PhD Scholar, Department of Arabic, National University of Modern Languages-NUML, Islamabad

Abstract

This article is aimed at analytically studying the Hanging Poem by Obaid bin Al-Abras, especially the way it handles and discussed the phenomena of life and death. The poet has portrayed both the phenomena very delicately and has been quite successful in establishing a corelation between the two. He has shown a great sense of intellectualism and aestheticism. Beginning from the remains of the abodes of his dear ones, he relates all of it with the death and the triviality of human life on earth. Then he reverts to the life and both of its real and imaginery aspects, emphasising on the siginifcane of false hope and its deep impact on the individual level. Proceeding ahead, he portrays the journey in the desert accompanying with his she-camel, horse, hunting eagle and the even fox wandering around his prey. As a matter of fact, all these objects are serving as

symbolism for the two phenomena of life and death, while th poet has utilised all of them very discreetly and tastefully.

Keywords: Phenomena, Life, Death, Obaid bin Al-Abras

المقدمة

اثارت معلقه عبيد بن الابرص اشكالات عده تتعلق بنيتها وايقاعها ولغتها اذ تتوافر على قدر كبير من الاشكالات التي كانت مدار احتفاء كبير من النقاد لاسيما اولئك الذين يدرسون الجانب العروضي منها، وخلافا لذلك فان القصيده لم تتلقى قياسا بغيرها من المعلقات اهتماما كبيرا من قبل الدارسين سواء من حيث تحليل مكوناتها او قراءتها اذ ان قليلا من الباحثين توقفوا عندها اثناء دراستهم للشعر الجاهل، لا سيما في العقود الماضيه التي شهدت التفاتا واضحا للموروث العربي ومحاولات كثيره لتقديم قراءات جديده لنصوصه الشعريه ولعل مراد ذلك يعود الى صعوبه التعاطي مع هذه القصيده خاصه في جانبه جانبها العروضي اذ انها تسير ايقاعا على منوال خاص يختلف جذريا عن غيرها من قصائد جاهليه.

وليس من غايات هذه الدراسه البحث في مثل هذه الاشكالات بل ستحاول تقديم قراءه تحليليه للمعلقه تنطلق اساسا من محاوله رصد تحولات خطابي الحياه والموت في النص، اذ ان الاساس الفكري الذي قامت عليه المعلقه يتبلور في اطار يزاوج بين خطابي الموت والحياه على نحو قلق ومضطرب، ومملوء بالتناقض الذي يبلور الفكره الانسانيه لمعادله الحياه والموت عند عبيد بن الابرص في اطار شعري، فجدليه الحياه الموت تبدو في معلقه عبيد واضحه طاغيه الى الحد الذي دفع وهب روميه الى ان يعلق عليه فيقول: انها تقترب من معلقه امرئ القيس في احزانها ونواحيها على الحياه الكونيه بل لعلها احلى اعلى نشيجا ولست اغالي اغالي اذ قلت ان عبيد بن الابرص يرثي الحياه الكونيه رثاء يقطر مراره واحساسا بالفجاه بالفجيعه.[1]

[1] رومية وهب، شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، كتاب رقم 207، 1996، ص 303

اما على الصعيد البنيوي فان مشروع القراءه الذي تحاول ان تنطلق منه هذه الدراسه ينهض ايمانا بان اللوحات الشعريه في معلقه عبيد وفي غيرها من قصائد جاهليه تشكلت بناء على وعي فني كبير بملامح الصوره الشعريه وفاعليتها الحركيه في بناء النص ولا يعني هذا بان عبيدا او غيره من الشعراء كانوا واعين مفردات الصوره الشعريه، ومكوناتها الدلاليه على المستوى النظري غير انهم كانوا ياعون تماما ان تشكل النص الشعري يعتمد على القدره التخيليه التي تستطيع ان تبني عوالم كامله في مواجهه العالم الحقيقي، ولعل اكثر ما يجلي حضور الصوره الشعريه اللوحات التي تشكل بنيه النص الجاهليه عموما فالشاعر الجاهلي استطاع بهذه اللوحات ان يبني تصورات، خاصه عن كل ما كان يشغله من متعلقات الوجود وبوساطتها ايضا كانت محاولاته المستمره للبحث عن اجابات شافيه للاسئله التي تقلقه وتلح عليه فيما يتعلق بوجوده الانساني.

وتجدر الاشاره قبل البدء بتحليل النص الى ان هذه القراءه ستختزل الشرائح التي تتكون منها القصيده الى شريحتين رئيسيتين، تتوافر كل منهما على مجموعه من الجزئيات الخاصه التي تتعلق ضمن نسق كلي لتكون اخيرا الميزه البنيويه للنص الشريحه الاولى هي المقدمه الطلبيه وما تتضمنه من صور ومقاطع خاصه والشريحه الثانيه هي الرحله التي تتسم بخصوصيتها وما لا يمكن اغفال علاقتها ببقيه اجزاء القصيده، وستحاول هذه الدراسه ان تعنى اساسا برصد التحولات التي تحصل على صعيد البنيتين العميقه والسطحيه بين الشريحتين ومكونات كل منهما.

اللوحه الاولى الطلل ومحمولاته

1- شموليه الموت:

ما اطيب العيش لو ان الفتى حجر تنب الحوادث عنه وهو الملموم[2]

[2] ديوان ابن مقبل، تميم، تحقيق عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، 1995، ص 198

لعل بيت بالمقبل السابق يؤشر على طبيعه وعي الانسان الجاهلي بالموت ومحاولته اقتناء سره الوجود الذي ظل هاجسا يلح على الذاكره البشريه عبر تاريخها الطويل اذ ليس ادل على هذا القلق الوجودي من هذه الامنيه التي يصبح فيها التخلي عن كل مشاعر اللذه التي يؤسس لها الاحساس مطلبا في مقابل الخلود وحجرا بليدا تمر عليه الحوادث والسنون دون ان يشعر بتبدلها فيقف الزمن الذي يظل مرتهنا لفاعليه الموت عاجزا في لحظه عبثيه عن فرض منطقه على الانسان.

لقد ادرك الانسان عبر عصوره المختلفه الحقيقه المطلقه للموت غير ان سر هذه الحقيقه ظل لغزا يشغله ويقلقه لا سيما في المراحل الاولى من حياه الشعوب التي اتسمت باضطراب في الرؤى وتشتت في المعتقد، ولعل الانسان الجاهلي لم يكن بمعزل عن مثله هذه الرؤى اذ ان الحياه الجاهليه كانت تفتقد الايمان القوي بالله واليقين الثابت باليوم الاخر الا ومضات خافته كانت تضيء قلوب المتحنفين المتمسكين ببقايا دين ابراهيم عليه السلام فالجاهلي كان على درجه بالغه الحساسيه تجاه الموت، خاصه ان ديانته لم تسعفه في هذا الموضوع ولم تقدم له العون في مواجهه هذه المشكله فالموت قضيه تتصل ببقاء الانسان، من جهه وبفنائه من جهه اخرى ووفقا لذلك تتجلى مشكله الجاهلي بوصفها مشكله في المعتقد فهو يجهل مصير الانسان بعد الموت كما انه لا يستطيع ان يستوعب وفقا لقدراته البشريه خصوصيه الموت ومنطقته فليس ثمه مخلوق يستطيع ان يكتسب خبره من الموت تكشف عن غموضه واثارته لان الموت نفسه يلغي الخبره الناجمه عنه ويسبب هذا الغموض وهذه الاثاره ينطلق الخيال في فضاء الرؤى والتصورات وتبزق فكره الخلود وقد انعكست مثل هذه الروى على الشعر الجاهلي بشكل واضح، وظهرت عند معظم الشعراء الجاهليين فقد كانت فكره الموت او الدهر او الفناء ما يستاثر بكامل التاملات الشعراء القدماء اذ كان وعيهم منصبا حول فكره

فحواها ان دهرهم سيطويهم اجلا ام عاجلا ولهذا وقفوا موقف عداء منه وهذا ما تشفع عنه تصاويرهم الخاصه بالموت [3].

وفي معلقه عبيد بن الابرص تبدا طقوس التحول منذ منذ اللحظه الاولى تاركه مساحه من التامل السارق في المصير الانساني القابع خلف تساؤلات الزمن والوجود، فكما هي العاده في معظم المعلقات تبدا القصيده بمقدمه قليله اذ تاخذ فاعليه الزمن وعملها ضمن صيغ النفسيه تؤسس الاحتمالات الموت والهلاك وهي مقدمه تؤشر على مقدار كبير من السوداويه والشعور بالخواء على كافه الاصعده ما يعني ان الموت باشكاله واشكالاته المختلفه، كان المحور الاساس الذي قدمت عليه شريحه الاولى، فالشاعر لا يحاول البته ان يظهر تجاه الموت ردد فعل ايجابيه تقلل من حجم الماساه الا على صعيد ملكته التخيليه فهو يقول[4] :

قفر من اهله ملحوب فالقطيات

فالقطبيات فالذنوب

فراكس ففعالبات فذات فرقين فالقليب

فعرده فقفا حبر ليس بها منهم عريب

وبدلت من اهلها وحوشا وغيرت حالها الخطوب

ارض توارثها شعوب وكل من حلها محروب

اما قتيل واما هالك والشيب شين لمن يشيب.

فاذا كان التعابير الشاعر لم تشر الى الحاله التي كانت عليها الارض قبل ان يستولى عليها الموت، فان القراءه المضمونيه لم يخلفه الفعل اقفر تؤشر على ان هذه الاماكن كانت تعج بالحياه بمختلف اشكالها، اذ الفعل السلبي للموت وما يحدثه من قفر وهلاك

[3] محمد، أحمد علي، الوعي الشعري وفكرة الزمن: المنتبي انموذجا، مجلة الموقف الادبي، العدد 317، كانون الأول 2005، دمشق، ص72.

[4] عبيد بن الأيرص، المعلقة، شرح القاصائد العشر، شرح الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامش فوامز الشعار، 2006م 1982، ص259

لا يمكن ان يتم ضمن صيغته الجدليه ما لم تكن هنالك حياه سابقه يستطيع هذا الموت ان يلغيها لصالح القيم السلبيه التي يؤسس لها ويفرضها بمنطقه، الذي يترك اثرا اقوى من ان يقاومه انسان فالطلل عند الشاعر الجاهلي يعني انتهاء الحياء وفقدان الاحبه ورحيل المحبوبه التي ستقدوا بعيده عن العين، ولعل هذا ما يفسره العنايه الكبيره بلوحه الطلل عند الشاعر الجاهلي اذ يغدوا انحياز الشاعر للوقوف على الاطلال انحيازا للتمسك بالحياه في مواجهه الموت.

على هذا النحو تتبلور القصيده ضمن زمنيين ناقضين احدهما مغيب يمكن استقراؤه عن طريق حضور الثاني زمن غائب يمثل القيم الايجابيه وزمن حاظر يطغى بالسوداويته وحضوره الماساوي، ويؤسس لحاله من التوتر التي تترك اثرها في بنيه النص فنيا من خلال تشكل الصور الفنيه على نحو سوداوي قلق ليس ادل عليه من ذلك الاضطراب الحاصل في ابقاع النص في ايقاع النص، وهو اضطراب لا يمكن تفسيره بقصور في قدرات عبيد الشاعر الفحل الفنيه بل هو تفاعل طبيعي وتعبير عن حاله القلق النفسيه التي انعكست فنيا على النص، وعلى الصعيد الدلالي فليس ثمه داع لتاشير على الشعور السوداوي الذي يطغى على النص فهو واضح جليا وسيكون محفزا لهذه القراءه لتبين دلالته التي تظهر في النص.

ان محاوله اجتناه الدلالات السلبيه للفعل اقفر لا تقف عند حدود التعيين المكاني لحالات الخواء التي حلت بالديار، بل هي تتعدى لذلك لترتبط بما يعينه الشاعر من معان انسانيه خاصه تتبلور ذهنيا في مخيلته لتصبح علامه تشمل بمعطياتها الجديده الانسان بكامل متعلقاته، فالشاعر بوصفه انسانا يعايش تجربه خاصه لا يبني عالمه التخيلي ضمن اشكالات فرديه فحسب بل هو يتاثر بتجربه الانسان ايا كان زمنه ومعتقده ومكان اقامتهم صحيح ان زمن حياه الشاعر ومكان اقامته ونفسيته ومعتقداته كلها اشياء تتوافر على خصوصيه، تمنح النص مزايا معينه الا ان الشعور الوجودي بحجم الماساه الانسانيه التي يستولى عليها الموت يظل شيئا مشتركا بين كل البشر

وفي كل زمان، ولعل الطلل اطار مهم يودع فيه الشاعر خصوصيه ينبغي ان تتساوى والسيره الشاعر وظرفه القبلي، كان لابد من استنباط الخصوصيه الادائيه والدوافع النفسيه المتصله بالغرض الرئيس للقصيده، اذ ان طلل عند عبيد بن الابرص غدا رثى الذات الشاعره لنفسها للانسانيه كلها، فالموت حينما يستولى على الشاعر يصبح مستوليا على الناس كلهم وهذا المنطق الفلسفي هو ما تقوم عليه التجارب الشعوريه البشريه عموما اذ ان الانسان يعاين العالم من خلال احساسه وهو ما يواجهه ومن ثم فهو ينطلق من ذاته ليفهم العالم فعبيد يعلن حس الموت في المطلع القصيده بالفعل اقفر الذي يوحي بالموت والدمار لا سيما انه يصر على تاكيد الاماكن الذي التي حل بها الموت على نحو متابع متتابع سريع من خلال استخدامه لحرف الفاء الذي يفيد السرعه في حدوث الشيء.

اقفر من اهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب فراكس فشعالبات فذات فريقين فالقليب فعرده فقفا حبر ليس بها منهم عريب.

لقد اصبح المكان ذاته هدفا لفاعليه الزمن التدميريه، اذ استولى الموت على كل هذه الاماكن المرتبطه وجدانيه وجدانيا بالشاعر، فهي اماكن قد خلت من ساكنيها والمكان حينما يفقد ارتباطه بالانسان يصبح ميتا اذ الحضور الانساني وحده هو ما يحدد القيمه الحقيقيه لمكان سلبا او ايجابا، وتاسيسا على حس الخواء هذا يظهر الياس والاستسلام المفرط للموت في اشاره ماساويه الى دور الزمن الذي يخضع لفاعليه الموت والدمار، فالزمن هو الذي احدث عمليه التغير في المكان على نحو يبدو وكان لا رجعه فيه بحيث تصبح الارض كلها مرتهنه للموت بكامله تجليات.

ارض توارثها شعوب

وكل من حلها محروب

اما قتيل واما هالك

والشيب شين لمن يشيب.

ان هذا القلق المسيطر على الشاعر سيظهر جليا في مقاطع القصيده بل هو حس يكاد يسيطر على مجمع نتاج عبيد بن الابرص الشعري والارض التي توارثها الموت لا تؤشر فقط على المكان الذي وجد فيه وجد فيه الشاعر في لحظه زمنيه ما، بل هي ترتبط بالمكان الانساني عموما فالمكان في المجدان البشري تتم معاينه ضمن علاقه جدليه مع الزمن الذي يفرغ بمنطقه حضور الموت باستمرار، اذ لا يمكن ان يوجد مكان ما لم يتعرض للموت وفاعليته السلبيه ويختلف الانسان تبعا لذهنيته الخاصه في مواجهه الموت، ففي مقابل العبثيه الوجوديه التي يمكن تلمس حضورها عند طرفه ابن العبد مثلا كان عبيد يواجه الموت بياس وقلق وسوداويه فطرفه كان يقول.

الا اي هذا اللائمين احضروا الوغى وان اشهد اللذات هل انت مخلدي فان كنت لا تستطيع دفن دفع عمليتي فدعني ابادرها بما ملكت يدي.

ان الاقتناع التام بان النهايه الحتميه لاي انسان هي الموت قاد طرفه لمحاوله الاستمتاع بكل لحظه يعيشها فاذا كان المصير الوحيد الذي لابد ان يناله كل انسان هو الموت، فان الاستمتاع بالحياه بكل معطياتها يغدو محفز الاهم لطرفه ليبقى حيا في مواجهه الموت على نحو يسوغ من خلاله فلسفه خاصه ترتكز على البحث الدائم عن اللذه والمتعه عند طرفه، او امرؤ القيس او الاعشى مرتبطه اساسا بمفهوم الفناء والاستغراق في الشرب حتى يغيب الشارب عن الدنيا ويزول احساسه الرهيب بشبح الموت هو اكبر متعه او قل انه لذه الهروب من الموت.

اما في حاله عبيد بن الابرص فقد كان الامر مختلفا تماما فالشاعر يبدو عاجزا كليا، وهو يرى الموت يسيطر على كل ما حوله، لا سيما ان الاخبار تقول ان عبيدا قد عمر طويلا بحيث راى احبابه واصحابه يموتون تبعا دون ان يملكوا قوه امام الموت ومنطق الزمن حياله، وهو بمثل العمر الذي وصله لا يملك ان يواجه الموت بعبثيه طرفه ولا بفروسيه عنتره ان عبيدا عاجز تماما ومنهك امام فاعليه الزمن، على صعيد اخر وخلافا لمعظم القصائد الجاهليه التي تبدا بمقدمه قلاليه يبدو ان عبيدا بن الابرص قد اغفل اي اشاره لاي امراه في قصيدته، فالمراه التي كانت تظهر في معظم القصائد

الجاهليه غابه عن الحضور الحسي غير انها ظلت حاضره في مخيله الشاعر فهي التي يمكن ان تجدد شعوره بقيمه الحياه، وكان الشاعر الذي نظم معظم شعره في اواخر عمره لم يكن بمقدوره ان يتجه بعاطفته وغريزته الانسانيه نحو امراه تكمل فيه بوصفه رجلا دوره الطبيعه، مثل ما يكمل الموتى الدوره الطبيعيه للحياه ومن ثم تصبح المراه رمزيا مغيبا تختزل حضوره اشاره تنم عن احباط وقلق شديدين والشيب شين لمن يشيب.

وبذلك فان الانثى في حين تجد طريقها الى لوحه الشيب لا تكاد تحقق حضورا اصيلا يحتمل تشخيص انفعال نفسي متميز ذلك انها تتخذ موضعها مجرد عنصري عنصر يقتضيه الحوار، الذي يبدو مجرى تقليديا لحديث الشيب في عامه النماذج الموروثه حيث تنبري العادله او العادلات للتنقص من الشاعر الذي يتخذ من العدل على الشيب منفذا للفخر بما كان من مغامرات شبابه او الحصر على ما فات من ايام عمره، والتفاصيل مرهونه بعد ذلك بتوجه الشاعر النفسي وتجربته الانيه التي تقتضي مناخا ممهدا لتفاصيلها.

ان ارتباط الانسان بانثى في ظروف مهيئه للتواصل الكامل تبعا لغريزه الانسانيه، يعني شكلا من اشكال انتصار الانسان على الموت فالانجاب يعني انتصارا ضمنيا على الموت، فهو يعني استمرار دوره الحياه ضمن سلسله معينه غير ان الشاعر في هذه القصيده يعلن عجزه بل وخجله من عجزه التام، ولعل ما يؤشر على ذلك بوضوح الحيه المتواصل على فكره الشيب في معلقه اذ يكرر عبيد لفظه الشيب وما يتعلق بها ثلاث مرات وهذا يعني ان قيمه الشيب ليست معنويه فحسب بل هي قيمه ماديه يتلمس الشاعر حضورها في نفسه وكان الشيب علامه الموت الذي اخذ ينتشر سريعا في حياه الشاعر بكل متعلقاتها.

عالم الحياه التخيلي والامل المكذوب

تنتهي فاعليه الحركه الاولى في النص ضمن ملابسات تؤكد شموليه الموت وسيطرته على كل معطيات الحياه اذ يعلن الشاعر العجز التام عن مواجهه الموت واقعيا فتكون

رده الفعل الطبيعيه تجاه كل هذا الشعور بالخواء، ان تفيض عينا عينا الشاعر حزنا ومراره لكن ردت الفعل العكسيه هذه على الرغم من انها نتيجه طبيعيه لفعل الموت تتحول تخيليا الى مؤشر يحمل بعض الامل على الصعيد النفسي.

عيناك دمعها سروب كان شانيهما شعيب
واهيه او معين ممعن من هضبه دونها لهوب
او جدول في ظلال نخل للماء من تحته سكوب.

ان عبيدا ماذوم ومهزوم على كافه الاصيله وهو ازاء هذه الحاله النفسيه القلقه المضطربه يحاول ان يبني عالم عالما تخيلا يوازي العالم الحقيقي لكنه يختلف عنه جذريا اذ يشق طريقه نحو الطبيعيه التي ترمز الى الحياه والموت معا فيحاول ان يستجري صورها الايجابيه على الصعيد الذهني في مقابل صورها السلبيه واقعيا فيبحث عن بارقه امل سواء في لمحه النجم اذ اشرق وسط السماء او في المطر الذي يبعث الحياه ضمن طقوصه الخاصه في الارض يا باب وكانه على الرغم مما حل به جراء قسوه الطبيعه يفر منها اليها ضمن مشهد عبثي مدهش فهي واحدها القادره على منحه الشعور بالطمانينه وهي وان كان يعاني من واقع يطغى عليه الموت والفناء فانه يبحث في اعماق هذا الواقع عن امل جديد فيصبر اغواء اغوار الطبيعه باحثا عن حياه اخرى لقد شعر الجاهلي بحاجيته الى تحقيق وجوده الذاتي من خلال شعوره بوطاه الموت والفناء ولعل اصرار عبيد هنا على تكرار لفظه الماء –باشكالها المختلفه– يؤكد ذلك اذ انه يبدو اذا محاوله عن عبثيه لبث الحياء في المكان المتهدم من جديد فهو الذي راعه المشهد الماساوي للمكان يحاول ان يقيم عالما تخيليا موازيا له ونقيضا له في ان واحد، فهذا الاحساس بالماء مرده الحاجه النفسيه للارتواء بالنسبه للشاعر وكانه يتمنى ان يعود الماء ليحيي الارض ليباب من جديد لعله يجد في ذلك انتصارا معنويا يمكن ان يخفف عنه وقع المأساه.

ان فاعليه الصوره الفنيه في هذه الحركه تاخذ دلالتها الايجابيه تخيلي ضمن المحاولات الشاعر البائسه لرد الحياه مجددا الى الارض فعلى الرغم من عبثيه الموت يظل الشعور بالارتواء النفسي هاجسا يلح على الشاعر، ومع بدايه البيت السابع ونتيجه طبيعيه لوقوف الشاعر امام لوحه الطلل تبدا حركه تخيليه تتنامى بتسارع متكئه على التشبيه ضمن عبارات سريعه تشابه وقع المطر وسيل الماء متدفقا وحامل الامل، ولعل ما يؤشر على ذلك التنامي المطرد في حركه الماء تبدا حركه الماء اولا مشبهه بقربه خلقت فتكون بطيئه:

عيناك دمعها سروب كان شانيهما شعيب

ثم يتحول الى ماء يجري على وجه الارض بسرعه جراء المطر:

واهيه او معين ممعن من هضبه دونها لهوب

ثم يتنامى الشعور بحركه الماء لتصير الدموع في جريانها كالنهر الصغير الذي يجري ببطن واد:

او فلج ببطن واد للماء من تحتها قسيب.

صوره لترسيم اللوحه هي اجمل ما يمكن ان يشاهد في الصحراء حينما ينتقل الشاعر الى تشبيه دموعه بجدول يجري في ظلال واحه مليئه بالتخيل في لوحه تفيض حاويه فهو يقول:

او جدول في ظلال نخل للماء من تحته سكوب

وكان هذا التنامي في حركه الماء يوازي على الصعيد النفسي رغبه الشاعر في الانعتاق من الاحساس بالموت ولذلك فهو يواصل عرضه على يعني حويطه صعيدي ليعمق من خلال احساسه بالحياه، لكن عندما يستفيق الشاعر من حلمه هذا يرتدع الى واقعه القاسي فليس ثمه مناص من الاستسلام الى ما يجابهه الشاعر حقيقه اذ لا يمكن للعالم التخيلي مهما كان يتوافر على قيم ايجابيه ان يلغي الحقيقه ويهمشها، ما يعني ان ارتداد الشاعر السريع في البيت الحادي عشر الى واقعه المازوم يعني. يعني خروجا من حاله الحلم فتحدث حاله من التصادم العنيفه بين وضعين احدهما تخيلي بعد

والاخر واقعي يفرض حضوره على الرغم من محاوله عبيد الهروب منه فهو يقول تصبوا واني لكن تصابي اني وقد راعك المشيب.

على هذا النحو ترتدد حركه النص مجددا نحو الاحباط والياس فيظهر المشيب بوصفه اشاره الى قدره الزمن على احداث التغير والتبدل المرعبين، فالشاعر يقرن بالمشيب لفظه راعك بما تؤشر عليه من معالم الخوف والرعب والاحباط ان حضوري هذا البيت مباشره بعد المقطع الذي يفيض حياه بفعل حضور الماء يعني. ان الشاعر حاول ان يسترد الحياه للارض بكل ما تحتويه ما يؤشر على ان هذا المحاوله كانت مقترنه برغبه الشاعر في ان يكون قادرا على مواصله الحياه مثل ما كان يفعل ايام شبابه، ولعل ما يؤكد ذلك ان الشاعر يجرد من نفسه شخصا يوجه اليه خطابه الشعري وكانه يخلق ذاتا اخرى يحاكمها بمنطق الرجل المسن الذي لم يعد. مقدوره ان يتواصل ايجابا مع الحياه بكامل تجلياتها.

ان الشاعر في حديثه عن الموت يعرض ضمن نسق المتكامل ذلك المظهر المرتبط بالمرحله التي تسبق حضور الموت وهي مرحله الشيخوخه حين ينتشر اللون الابيض في راس الانسان مغيرا ملامحه التي كان عليها فالزمن يفعل فعله على الاصل اذا كافه المكانيه والبشريه والنفسيه فاذا كان قد حول الارض من مرحله الحياه الى مرحله التي الج. الجذب واليباب فهو يحول الجسد الانساني من مرحله الحيويه والشباب الى مرحله الكهوله والعجز ومن ثم فان هذا الشيب الذي لم يحل فجاه ومرحله تراكميه لبدايه النهايه، والخروج من فتره القوه الى فتره الضعف على الصعيد الجسدي.

اما على الصعيد النفسي فيعمل الشيب نحوا رمزي اذ يشير الى تلك الحال من الاستكانه والى المصير المحتوم الموت ما يعني انه مرتبط كليا بالياس وعدم القدره على المضي قدما في الحياه ويكون الشعور اذاء هذه الحتميه ان ترتدد الذات الشاعره الى الشيخ الذي ينطبق بالحكمه، وكانه يبحث في تجارب الاخرين عما يعزي ويمنح قلبه قليلا من الطمانينه.

وعلى الرغم من ان الحكمه هي ما يطغى على القصيده بدءا بالبيت الثاني عشر وانتهاء بالبيت السادس والعشرين الا ان فاعليتها بنيوي تعمل في اتجاهين مختلفين فالابيات من 12 الى 15 تتضمن محاوله للبحث عن الذات الانسانيه عامه، ضمن تجارب الاخرين فما دام الموت مصير كل نفس حيه وما دام التبدل والتحول هو سنه الكون فليس ثمه داع لكل هذا القلق والجزع.

اياكم حول منها اهله اهلها فلا. بضيقه ولا عجيب؟ قويك وقد اقفر منها جوها وعادها. محل والجذوب فكل ذي نعمه مخلوسها وكل ذي امل مكذوب وكل اذبل موروث وكل ذي سلب مسلوب. سطر جديد. ان الانطلاق من هذه الابيات لاقامه معدل موضوع على الصعيد. الدلالي تعني الاشاره الى رغبه.

الشاعر في تعزيه نفسه ومواساتها فهو يشير الى الحسن الماساوي المتمثل في اقفار المكان وارتحال ساكنيهم، لكنه في ذلك يحاول ان يخفف عن نفسه حول الفاجعه وكان هذا المقطع جاء موازيا لمقطع الطلل الاول فتجربه الطلل الاولى تتعلق بذات الشاعر وهي التي قادته الى الشعور الطاغي بالموت، لكن هذه المقاطع تعلن صراحه ان تجربه الموت وارتحال الاحباب واقفال الاماكن هي تجارب انسانيه يشترك فيها البشر جميعا باساليب مختلفه فهذه الديار القطبيات والذنوب وراكس وتعالوابات وذات فرقين والقليب ليست اولا ما خلا من ديار ولن تكون اخرها وليست اول ارض حول عنها اهلها.

وهذا يعني ان الفعل الزمني المتكرر على المكان بما يحمله من دلالات سلبيه سيكون على نحو مفاجئ عاملا على البث القليل من الطمانينه، حينما يتم الوعي به على نحو فلسفي خاص فيصبح الايمان يقينا بحتميه الموت ملجا للشاعر وكانه يريد ان يقول ان الموت ياتي على الناس جميعا فليس ثم داع لكل هذا القلق والجزع.

خصوصيه التجربه البحث الفطري عن الله:

خلافا للمقطع السابق الذي تضمن ابياتا تؤشر على عموميه التجربه البشريه اذا الموت تبدا مع البيت السادس عشر حركه جديده على على مستوى النص، وهذه الحركه وان كانت ظاهريا تبت مرتبطه بمقطع الحكمه السابق عليهم، الا انها تعمل دلاليا على

نحو مختلف وتؤسس الاحتماليات تاويل مغايره، فالشاعر الذي حاول ان يبحث في عم. التجربه البشريه عما يواسيه يرتدد الان مجددا الى الشعور بعبثيه المحاولات التي تحاول اكتناه حقيقه الوجود البشري والبحث عن سر الموت[5] .

وكل ذي غيبه يا اوبو وغائب الموت لا يؤوب

اعاقر مثل ذات رحم او غانم مثل من يخيب.

يتمثل الفناء في هذين البيتين على نحو مغاير فكل انسان مهما طالت غيبته، لابد ان يعود من سفره لكن الذي يقتنصه الموت لا يعود البته، وهذا يعني ان ثم سرا وراء الموت لا يمكن للنفس الانسانيه استيعاب، وهناك مجهول يقلق الشاعر ويجعله حبيس دائره من الشك والقلق وكان الشاعر يرسم لوحه عبثيه يقف فيها عند نقطه فاصله بين مرحله. لشخص يحتضر هذا الشخص هو الذات التي جردها عبيد من نفسه، وما يقلقه ليس الموت بوصفه فعلا يعني النهايه التي يعيبها الشاعر فحسب بل النهايه المجهوله التي لا يعلم الشاعر سرها وليس بمقدوره اقتناء طبيعتها وتخيلها.

فالموت لا يوازي الحياه وما بعد الموت حاله اغراق فكري لا تتلمس معانيها اذ لا يمكن ان تتوازى الدلالات، فالعاقر لا تتوازع مع ذات الحمل ومن يعود غانما لا يمكن ان يكون مثل من يعودها خائبا تماما مثل ما لا يمكن ان يكون الشعور بالموت باي حال موازيا للشعور بالحياه، ان هذه الصوره تؤشر على قدره فنيه عاليه واستيعاب فذ لحقيقه العلاقه الجدليه بين الموت والحياه.

فعبيد يشكل من خلال هذه الصور معاني مرتبطه بحقيقه الوجود. الموت رحم عاقر والحياه. رحم معطاه ولهذا كان الرحم المعطى من الرحمه والرحم العاقر كالقفر يا باب والخراب انهما صورتان متناقضتان لوجود واحد، ولكنهما تمثلان سنه الحياه وحقيقتها المبنيه على ذلك التنازع المستمر الى ما لا نهايه، ازاء كل ذلك يكون الملجا اخيرا الى ذلك العظيم. الله جل شانه فعبيد ينقاد بفطرته الى الاستسلام لتلك القوه العظيمه التي تحكم بمنطقها وتسير بحكمتها هذا الكون، اذ ليس في متى ما يمكن ان يريح انسانا

[5] قميحة، مفيد، هبيد بن الايرص الأسدي، اخبارة اشعارة، ط1، دار الكتب العلمية، 1990- ص100

اكثر من الاستسلام الى هذه القوه والايمان بها وحدها ما يعطي القيمه الحقيقه للاشياء. وبذلك يهدا ايقاع القصيده وتتحول ابياتها الى حكم متتاليه تتضمن معاني انسانيه عامه تشير الى مواقف عاينها الشاعر وخبرها بنفسه غير انها منبثقه من تحولات الزمن ضمن دائره الحياه والموت[6] .

الا سجيات ما القلوب وكم يصرن شانا. حبيبه
ساعد بارض اذا كنت بها ولا تقل : انني غريب
قد يواصل النازح النائي وقد يقطع السهمه القريب
والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياه له تعذيب.

ان التحول الذي يحصل على النص في هذه الابيات يؤشر بوضوح على انتقال الشاعر من حاله التجلي التخيليه التي سادت النص سابقا بوصفها رد فعل طبيعيا على هول الفاجعه الى نمط من التقريريه التي تفيض حكمه، ان حركه التخييل تخبو وكان الشاعر يحاول مصالحه نفسه والاستكانه الى حقائق الوجود الطبيعيه ومن ضمنها الموت وهو الان. يعلم ان الرضوخ والاستسلام الى هذه الحتميه الوجوديه، وهو ما يمكن ان يمنحه الشعور الذي يبحث عنه فتجربه الشاعر الذاتيه بوصفه انسانا عاش حتى هرم تحتم عليه مقاربه الوجوه وفق منطقه الخاص. المنطق الذي يملي عليه ان يكون اكثر حكمه في مواجهه هذا المصير انه يعبر عن ذلك الشعور الذي شكل له هاجسا مقلقا ثم يهرب من وطاه لاجئا الى خبرته في الحياه اذ الدهر الذي كان سبب باب كل هذه الطقوس المقلقه من التحول بين الحياه والموت هو وحده الكفيل بان يجمع ان يجعل معاينه الانسان للاشياء اكثر حكمه وواقعيه، وخصوصيه هذه التجربه التي يعارضها عبيد تجعله ينطلق منها ليصوغ رؤى تتعلق بطبيعه النفس الانسانيه عموما منتقلا بتجربته من حيزها الذاتي لتقرير صيغه اكثر انسانيه وموضعيه ما دام البشر يعانون التجربه نفسها ازاء زمن بكل اشكالاته غير ان كل ذلك لا يجعل عبيدا منعتقا تماما

[6] عبيد بن الأبرص. المعلقة، من 261

عن الاحساس بالموت والخواء. وروحي تجاه هذا الموت وكان كل محاولاته للهروب تغدو ضربا من التكذيب الذي يحاول به الشاعر ان يواسي نفسه ما يعنيه انه سيرتدد عاجلا ام اجلا الى طقوس الحج حزني واجواء الموت التي تسيطر عليه والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياه له تعذيب.

على هذا النحو، تفضح الذات الشاعره عبيدا الانسان وكان الموت يصير امنيه ليس حبا فيه ولكن خلاصا من حاله القلق التي تسيطر عليه فالحياه لها شروطها التي تتاسس عليها ونحن نحب الحياه، اذا ما استطعنا اليها سبيلا ولكن ان لم نستطع الى هذا السبيل وصولا تكن الامنيه العميقه بالموت مقابل التخلص من سلطه القلق الوجودي الذي يترك اثرا. من ان يقاومه الانسان الهارب من الموت.

اللوحه الثانيه الرحله وتجليات المعادل الموضوعي.

تتحول حركه القصيده بدءا من البيت 28 مع شريحه الرحله اذ يعود النص الى الاتكاء على القدره التخيليه لبناء عالمه المثالي، فعلى الرغم من كل المحاولات السابقه للخروج من السوداويه التي سيطرت على الشاعر، فان نهايه المقطع السابق كان يؤشر بوضوح على احباط جديد ويؤكد ذلك البيت الذي انتهى به المقطع.

والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياه له تعذيب.

ان الرحله في معلقه عبيد ذاتيه صرف اذ يعود الشاعر مسترجعا احداثا ماضيه جرت له في الزمن الماضي، ذلك الزمن الجميل الذي كان فيه قادرا على التواصل مع الحياه بقيمها الايجابيه ولن يهتم البحث بمحاوله تحديد حقيقه هذه الرحله سواء اكانت خياليه من نسيج الشاعر ام حقيقيه عاينها عبيد واقعيا، يهمنا انه اذا صوره فنيه تخيليه تتضمن الحاحا على اثبات الذات. دون ان تخفي هذه الذات انفعاليها بحتميه الموت وحقيقته، وكان الشاعر يعكس في لوحه الرحله صوره تجرد ذاته الداخليه يحس بها حيال الاشياء بمشاعر الاقبال والادبار فهو يقول[7] .

بل رب ماء وردته اجن سبيله خائف جديب

[7] عبيد بن الأيرص، المعلقة، ص 263

ريش الحمام على ارجائه للقلب من خوفه وجيبه
قطعته غدوه مشيحا وصاحبي بادن خبوب

ان للرحله في الحياه الجاهليه قيمه عظيمه، اذ انه ينتقل من مكان الى اخر سعيا وراء الحياه وهربا من الموت والناقه هي المتلازمه الضروريه لكل رحله ورفيقه البدوي الازليه في كل الاحوال يقطع بها كثبان الصحراء، ويجتاز بها المفاوز ومن ثم فان العلاقه بين الجاهلي والناقه لا يمكن اختز. بعلاقه بين انسان وحيوان اليف فحسب اذ غتت الناقه ماده تعادل الانسان بشكل كامل ما يعني ان الحديث عنها يتوافر على خصوصيه مميزه، وكان صفاتها وما تعانيه اثناء الرحله صارت معادلا موضوعيا لما يريد ان يبثه الشاعر من هواجس تعتريه شخصيا ولو ان الناقه كانت عند عبيد او غيره من الشعراء حيوانا عاديا، لما لجا اليها حربا من حاله التمزق. والقلق التي تسيطر عليه وعنوان ما عني بتشبيهها بالحمار الوحشي والثور والاكتفاء بمعاينتها على نحو طبيعي، فالناقه تملك صفات القوه والسرعه بحد ذاتها ما يعني ان محاوله تشبيهها بالحمار والثور او غيرها لم تكن الا محاوله التعظيم تلك الناقه منتقلا من خلالها الى ذاته لقد ارهق الموت كاهل عبيد، وهو يحاول ان يهرب منه تخيلي على على نحو تتواسى فيه رحله الناقه بحثا عن الحياه مع رحله الشاعر هربا من الموت.

ولعل في لوني الحمار الوحشي الابيض والاسود ما يشير الى تلك الثنائيه الضديه التي تحكم والوجود البشري الحياه في مقابل الموت فهذه الصور التي يتكئ عبيد عليها لم ترسم على نحو اعتباطي، بل جاءت نتاجا طبيعيا لحاله القلق التي تعتريه والخوف الذي يسكنه ازاء حضور الموت، ولعل ما يؤكد ذلك الاحساس بالموت ريش الحمام المتناثر في ارجاء هذا المكان الذي الذي وصى له الشاعر جراء رحلته. فعبيد هنا يشير الى الموت من خلال بقايا الحيوانات واثارها كما انه اشار من خلال الوقايه

نفسها الى الخوف الذي يبعثه المكان في الانسان ومن هنا فان هذه الكنايه البعيده تشكل معادلا موضوعيا رائعا يشير الى الخوف ويجسده تجسيدا غايه في الادهاش[8] . وامعانا من الشاعر في تاكيد فاعليه لوحيه الرحله في موازاه حضور الموت يستحضر مجددا صوره جديده لها من ماضيه على نحو طاغ في انشطار الذات وتشضيض وتشضيعها امام عبثيه الموت وكانه يجرد من عبيد الشاب يخشى. شخصا يتراءى امامه بكامل قوته وعنفوانه[9].

فادركته فطرحته والصيد من تحتها مكروب
فجدلته فطرحته فكدحت وجهه الجبوب
فعاودته فرفعته فارسلته وهو مكروب
يضغو ومخلبها في دفه لابد خير زومه منقوب.

ان هذه الرحله الجديده هي اخر الحركات التخييليه في القصيده، فالشاعر يعود الى ماضيه من خلال رحله جديده لكنها في هذه اللوحه رحله على ظهر فرس، وكانه يريد ان يستحفظ ان يستحضر ماضيا قويا دافئا بالحياه مقابل هذا الحاضر المقفر المشبع برائحه الموت فالفرس تبدو في هذا المقام تجسيدا حقيقيا لمرحله الشباب التي غيبها الزمن لصالحه مرحله الشيب المتصله بالموت ومن ثم فان عبيدا يلجا الى تشبيه فرسه باللقوه، بحيث ياخذ ذلك بعدا مضمونيا رائعا حين يغيب عبيد ذكر الفرس ويبدا برسم صوره تخيليه لحركه اللقوه، تشير في النهايه الى قوه الفرس التي تشير بدورها الى مرحله الشباب النابضه قوه وحيويه وهنا يبدا الشاعر بتصوير اللقوه في سياق يبعث على التامل في الصفات التي يلصقها عبيد بها.

فهي لقوه تبدو عليها علامات الضعف والوهن ويتساقط ريشها مع مضي العمر، وهي في ترقبها وسكونها كالعجوز الثقل التي فقدت احبتها فلم يعد ثم ما يحفزها للحياه. غير

[8] دراسة عاطف أحمد، دراسة لصية تحليلية، شهر عبيد بن الأبرص، رسالة ماجستير، جامعة موك، ص 217
[9] عبيد بن الأبرص، المعلقة، ص 284

ان لحظه الضعف والسكون هذه سرعان ما تتغير الى حاله تفيض حركه في صوره فنيه مليئه بالحس الدرامي اذ تلمح هذه اللقوه ثعلبا والثعلب هنا لا يرمز الى الفريسه فحسب بل هو رمز لاي محفز يمكن ان يجعل المراه متمسكا بالحياه واللقوه الان امام خيارين اما الرضوخ لعبثيه الزمن التي تفرض منطقها او النهوض طلبا. الحياه وخوض معاركتها.

ولانها لا تزال متمسكه بخيار المواجهه. تنهض مسرعه تجاه الثعلب لتخوض معركتها الخاصه وكان في هذه المعركه التي تدور بين اللقوه والثعلب تغدو معادلا موضوعيا للمعركه التي يخوضها الانسان امام المجهول الموت وكانكاد نلمح ساديه القوه، اذ نستشعر نسقا ايقعيا في تعذيب الثعلب وقتله ويمعن الشاعر في تصوير عمليه التعذيب ليمنحه هذا قدره اكبر في التمسك بالحياه وكلما كان المحف. مثيرا نمت الفاعليه الذاتيه في القدره على التشبث بالحياه ومواجهه المهالك.

ان الرجوع الى الحاله النفسيه للشاعر في المقاطع السابقه ومحاولاته المستمره للخروج من اسر الشعور المقيت بالموت بدءا من لحظه الدموع التي تحولت الى صوره فنيه لتدفق الماء مرورا بمحاولاته اللجوء الى الحكمه ومن ثم الارتداد الى الماضي عبر الرحله كلها مؤشرات تضع الشاعر في حاله نفسيه شبيهه بتلك التي تعيشها اللقوه. فهي مثله كانت تمر بحاله ضعف غير انها الان تقرر خوض معركتها، لقد ادرك عبيد كما ادرك غيره ان الصراعه هو جوهر الحياه وقانونها الخالد وان وجود الانسان وسائر المخلوقات وجود عرضي هش وان القضاء قدره لا مفر منه[10].

تمر اللقوه بحاله اعياء شديد.

فالدهر قد انهكها وهي من خلال وصف الشاعر لها. تبدو ضعيفه. اصعبها الهرم والجوع.[11]

باتت على ارم عذوبا كانها شيخه رقوب

[10] رومية شهرنا القديم التقد الجديد ص 304

[11] عبيد بين الأبرص العلقة، ص 265

فاصبحت في غداه قره يسقط عن ريشها الضريب

غير انها لا تتردد في انتهاز اي فرصه تمنحه قيمه اضافيه للشعور بالحياه فهي عندما ابصرت الثعلب نفضت ريشهاب وولت اتجاهه دون ان تتردد في اتخاذ قرار المواجهه وهي قد انتصرت في معركتها وان كان هذا مؤقتا اذ ان كل الكائنات هي في اسر هزيمه مرجئه امام الموت لكن هذا لا يتنافى مع التمسك بالامل حتى اخر رمق.

وفي الجانب الاخر يبدو الثعلب مهزوما امام فكره الموت فهو عندما راه اي الموت متجسدا في اللقوه ومقبلا اليه دب فيه الفزع والخوف واستسلم امامه في مشهد درامي مرعب.

فدب من خلفها دبيبا والعين حملاقها مقلوب.

ان عبيدا يبني من خلال هذه الصوره معادلا موضوعيا ذا بعدين يعبر به عن نفسيته القلقه ازاء مشكله الموت التي كانت الهاجس الذي بنى عليه النص البعد الاول مثل في اللقوه التي اختارت المواجهه حتى اخر رمق فعلى الرغم مما تضمنته صورتها من ضعف واعياء فانها ظلت متمسكه بالحياء دون رضوخ واستكانه وكانها تصبر على تاجييل هزيمتها حتى اخر رمق.

اما البعد الثاني، فقد تمثل بصوره الثعلب الذي بدا مستسلما تماما مهزوما امام فكره الموت وكان عبيدا بذلك يبني عالما تخيليا ينهض بمقوماته الدلاليه على الفكره التي الحت عليه طويلا فالصوره هنا تتشكل من خلال وعي الشاعر لحقيقه التضاد المصيري بين الحياه والموت وهو يدرك انه يواجه مصيرا محتوما نحو ذلك الشيء المجهول. غير انه يظهر قلقا مضطربا في خياراته. فتاره يؤسس شعوره تجاه الموت على نحو يظهر انه مستسلم تماما كحال الثعلب في اخر مقاطع المعلقه. وتاره يبدي نوعا من المقاومه والرغبه في الحياه باحثا عن اي حافز يدفعه الى ذلك. ولعل ما يؤكد ذلك هو محاولات الشاعر المستمره للخروج من اسر الشعور بالخواء والضعف. بلجوئه المستمر الى رسم عوالم خياليه تفيض امل وحيويه.

وعلى الرغم من ذلك، فان كل هذه المحاولات. ظلت تنتهي بارتداد عبيد الى الواقع الماساوي. اذ الشعور بالفناء كان على ما يبدو اقوى من كل محاولات الشاعر للخروج من اسره واكثر حده من مواجهته.

خاتمه

شكلت ثنائيه الموت والحياه محورا مهما في حياه الجاهلي ما انعكس على رؤيته تجاه نفسه ومجتمعي. اذ شعر ان للموت بمفرداته المتنوعه سطوه وهيمنه. فالموت باق ومتجذر في هذا الكون بينما الموجودات متغيره ومتبدله ولعل معلقه عبيد بن الابرص مثال واحد واضح على هذه الثنائيه اذا ظهر القلق الوجودي وغدا الشاعر مضطربا اضطراب العروض في قصيدته ونلمح استعانه الشاعر بما في الطبيعه من موجودات تدب في الحياه.

لتساعده على اسفار على هذه الثنائيه فظهرت الناقه والفرس واللقوه والثعلب. لتشكل رموزا مهمه في تصوير الصراع وتطويره وما من شك في ان الشاعر كان على وعي بالمضمون الفكري لقصيدته، وقد تجلى هذا الوعي من خلال الحكم التي استوعبت تجربته الادائيه وانعكست على خطابه ورؤيته والتصويره الفني.